الفصل التاسع

فتش عن المسلمة

ينطبق التعبير البلاغي «فتش عن المرأة» على العالم الإسلامي أيضاً. فإذا كان حقاً ما يقال في الغرب من أن وراء كل رجل ناجح امرأة، فإن وراء كل مسلم ناجح امرأة مسلمة.. ليست جارية، وإنما شريكة حياة محبوبة. ومن ثم: «فتش عن المسلمة»!

وقبل التطرق إلى تفاصيل هذا الـ «تقرير عن وضع المرأة في الإسلام»، أود أن أشير إلى بعض الأحكام العامة، وهي:

١- تشبه النساء المسلمات أخواتهن الغربيات أكثر كثيراً مما يعتقد المرء في أوربا ففي كل من العالمين، تضطلع المرأة بأدوار الزوجة، والأم، والمحبوبة، والفنانة، والسياسية، والصحفية، والشاعرة، والطبيبة، والممرضة، والجدة، والشيخة، والساحرة.. وغير ذلك كثير.

٢- تسعى الغالبية العظمى من النساء في الشرق، كما هي الحال في الغرب، إلى التكامل مع الرجال، وليس إلى محاكاتهم أو تقليدهم.

٣- يختلف المثال (النموذج) الإسلامي عن الممارسة فيما يختص بتطبيق حقوق المرأة، على النحو الذي أورده القرآن، مثلما يختلف في أمور أخرى كثيرة. وهذه ظاهرة معروفة في حضارات أخرى، وبصفة خاصة، فيما يتعلق بالواقع الفعلي للمرأة.

نأتي بذلك إلى التفاصيل :[1].

ونبدأ بـ «عقد الزواج». فنادراً ما تجبر النساء في بلاد المسلمين على الزواج، وإن كان ذلك يحدث في بعض الأحيان. ومع ذلك، فكثيراً ما لا تتوافر لهن فرصة كافية لاختيار شركاء حياتهن، لأن التقاليد تحول دون ذلك، ولذا يتم الكثير من الزيجات حتى الآن عن طريق ترتيبات الأهل في جميع بلدان العالم الإسلامي، من باكستان مروراً بإسطنبول والمغرب إلى موريتانيا. في هذه الأجزاء من العالم، يسود اعتقاد بأن خبرة الأهل توفر ضمانة لزواج ناجح وسعيد أكثر مما يوفره الحب بين الشباب. ولقد ثبت بالفعل، أن الزيجات التي ترتب على هذا النحو ليست أقل استقراراً من الزيجات التي تتم عن طريق الحب. ولكن الاستقرار ليس دليلاً مؤكداً على زواج ناجح، إلا في حالة ما إذا كانت الزوجة مستقلة اقتصادياً عن زوجها، بحيث تستطيع أن تتركه إذا أرادت.

غالباً، ما يجري اكتشاف عروس المستقبل بوساطة حماة المستقبل. وليس هناك مكان أفضل لذلك من الحمام (الحمام التركي)، حيث لا يرتدي المرء ملابس على الإطلاق، ومن ثم، لا تستطيع فتاة شابة أن تخفي ما قد يكون بجسدها من عيوب، في حين تلتقي في هدوء ومودة بعدد كبير من الحموات المحتملات.

على أي حال، يحرص الوالدان، أو الأوصياء على أن يتم الزواج الإسلامي التقليدي على أساس «عقد زواج» يصاغ بدقة وعناية، على نحو يجعل من غير الممكن أن يتزوج الرجل زواجاً ثانياً، ويؤمن الزوجة مالياً عند حدوث طلاق بالنص على مؤخر صداق كبير. وثمة أسلوب، يتسم بالدهاء، لتحقيق الاستقرار للزواج، يتمثل في النص على أن يؤدى الصداق (المهر) كاملاً أو جزئياً في حالة

(١) عن حقوق المرأة في الإسلام، انظر: مراد هوفمان: «الإسلام كبديل» (٤١) ص ١٦٣. ص ١٨٥.

وقوع الطلاق. ومن ثم يصير الطلاق بالنسبة للزوج، كما هي الحال في القانون الألماني الجديد، مخاطرة مالية لا يستطيع أن يتحملها.

يؤدي ارتفاع المهر في مجتمع ما، كما هي الحال في السعودية، إلى اضطرار الشباب إلى البحث عن زوجات أجنبيات، وبصفة خاصة من مصر وتركيا. فلقد صارت النساء السعوديات بعيدات المنال، بالنسبة لكثيرين من الشباب، لأسباب مالية، وهذا المَخْرج غير متاح في الإمارات العربية المتحدة، حيث لا يسمح، بسبب الخوف الشديد من خطر غلبة السكان الأجانب، لابن البلد إلا بالزواج من ابنة بلده. وحتى يكون ذلك ممكناً من الناحية المالية، يمنح أمير (أبو ظبي) إعانة لكل زيجة من هذه الزيجات، بلغت في عام ١٩٩٣ خمسين ألف دولار.

وكانت مشكلة المغالاة في المهور قد ظهرت في عهد الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) وأراد عمر لذلك أن يضع حداً أقصى للمهر. ولكنه ما لبث أن تراجع عن عزمه، عندما جادلته امرأة في المسجد بأن القرآن يمنع استرداد ما أخذته المرأة مهراً.

والزواج في الإسلام ليس سراً من الأسرار، وإنما هو عقد. ولكن يفصل بين عقد القران وحفل الزفاف، في بعض الأحيان، عام أو عامان. ولقد دُعينا في المغرب إلى حضور حفل عقد قران، وبعده بعام كامل دُعينا إلى حضور حفل زفاف العروسين.

لقد تزوجت في إسطنبول عام ١٩٧٧ حسب الشريعة الإسلامية، مع تقديم شهادة «الأهلية للزواج» الألمانية، أساساً لتوثيق الزواج المدني، وفقاً للقوانين التركية. وكانت الطقوس شديدة البساطة، واقتصرت في الواقع على الصلوات. واستطعنا أن نتغلب على مشكلة المهر المرتفع، حيث إن زوجتي أصبحت، بموجب عقد القران، مستحقة لمعاش من إدارة المعاش في بون.

كانت حفلات الزفاف في العالم الإسلامي، وما تزال، تتسم بالبذخ الشديد، ولكنها تختلف في طقوسها من منطقة إلى أخرى. ومع ذلك، فهناك على أساس الحقوق العائلية الإسلامية خصائص مهمة مشتركة. مثال ذلك ما هو معتاد في كل مكان من احتفال كل من الرجال والنساء على حدة بليلة الحناء، ومن تأمين الرجل لعروسه في مواجهة الشيخوخة بإهدائها حليًّا ومشغولات ذهبية عالية القيمة. (ومن المعروف، أن الزوجة، وفقاً للشريعة الإسلامية، تتمتع بذمة مالية مستقلة منذ ١٤٠٠ عام). وكثيراً ما خشيت في تركيا من أن تسقط العروس تحت وطأة ما تحمله ليلة زفافها من خواتم وسلاسل ذهبية وساعات مذهبة.

تشترك الأفراح من تركيا إلى المغرب في ذلك الاتجاه المتزايد نحو إشاعة الضوضاء باستخدام أجهزة صوت إليكترونية أكبر فأكبر. فمن الأمور المستحدثة، عندما يحتفل بالزفاف في أحد الفنادق الكبيرة بإسطنبول، إطلاق صاروخ ألعاب نارية عند بدء الاحتفال، على نحو يثير الذعر في المدينة كلها. وفي المغرب، بلغت هذه المساوئ مستوى غير مسبوق. فلقد صارت حفلات الزفاف هناك منذ ما يقرب من ١٥ عاماً عذاباً سمعياً للمشاركين فيها ولغير المشاركين على السواء، ممن يضع حظهم العاثر مساكنهم في محيط يبعد ٢ كيلو متر عن مكان الاحتفال بالزفاف.

والأمر يبدو كما لو أن الناس ترفع شعار «لا ينبغي لأحد أن ينام يوم عرس ابنتي»! ويبلغ ضجيج الاحتفال حداً يعجز المرء عنده عن سماع من يجلس إلى جواره حول منضدة واحدة.. بل إن المرء يظل يشعر في اليوم التالي كما لو كان نصف أصم! لذلك، فقد عقدت العزم بكل الجدية على أن أستخدم في حفل الزفاف التالي غطاء الأذن الذي كنت أستخدمه في أثناء تدريبي على الرماية.

من المعتاد في المغرب، أن تطلع العروس على ضيوفها في أثناء الاحتفال بسبعة أثواب متتالية، بما يناسب كلاً منها من حلي - على نحو ما تصف شهر زاد في الليلة الثانية والعشرين من ألف ليلة وليلة - ويشبه الثوب الأخير (للأسف) ثوب زفاف أوربي. أما الأثواب السابقة عليه، فأثواب رائعة الألوان، تمثل المناطق المختلفة للمملكة.

جرت العادة في المغرب على وجه الخصوص، كما هي الحال عند المسلمين الهنود، أن تحمل العروس، جالسة في قفص من أسلاك الفضة على أكتاف شيخات قويات يؤرجحنها يمنة ويسرة. في حين يدخل (العريس) إلى القاعة محاطاً بموسيقيين سمر البشرة من مراكش، يعلن عن وصوله بأصوات بآلات النفخ والإيقاع شديدة الارتفاع دون أجهزة صوت إليكترونية.

يجلس العروسان الليلة بطولها في (كوشة)، لا يتحدثان ولا ينظر بعضهما إلى بعض امتثالاً لما تفرضه التقاليد العريقة في ريف الأناضول حتى اليوم. أما في المدن التركية، فالأمر يختلف إلى حد ما، إذ يجلس العروسان في بادئ الأمر في مواجهة المدعوين، غير أنه يجوز لهما التحدث معاً، كما يجوز لهما الاختلاط مع المدعوين في أثناء الحفل.

شهدنا هذا البذخ الشديد نفسه، والطقوس ذاتها، والطعام ذاته، والمشروبات غير الكحولية نفسها، في حفلات زفاف عند علية القوم وعند بسطائهم على السواء... عند سائق سيارتي الحاج محمد جينيها في مدينة صالة، ومرشدنا الصغير غير الرسمي إدريس في فاس.. وفي حفلات زفاف بنات وزراء في الرباط. والاختلاف الوحيد بين أولئك وهؤلاء، هو أنه كلما كان الناس أشد

بساطة كان المضيف أكثر وداً وترحيباً بالضيوف، وكان الحفل أكثر بهجة.

❖ ❖ ❖

ليس ثمة ما ينعش الخيال الجنسي عند مواطن أوربي أكثر من تصوراته الخاطئة عن الجنس في الإسلام، فإذا كان يظن أنه يعرف شيئاً واحداً عن الإسلام، فهو أن المسلمين - هؤلاء الشهوانيين - لهم الحق في أن يتخذوا «أربع زوجات». وهنا يسيل لعابه. لكن حتى هذه المعرفة البسيطة خاطئة، لا تطابق الحقيقة.

وهي خطأ، لأن القرآن يشترط لممارسة هذه الإباحة شرطاً يكاد يكون من المستحيل الوفاء به، وهو تحقيق العدل بين الزوجات، بحسب نص الآيتين من سورة النساء: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾.

وهي ليست حقيقة أيضاً، لأن الزواج بواحدة في واقع الأمر ليس أقل شيوعاً في العالم الإسلامي منه في الغرب. والزواج بامرأة واحدة أكثر استقراراً في العالم الإسلامي منه في المتوسط في أمريكا أو السويد أو ألمانيا، بحسب ما تبينه الإحصاءات.

وعلى الرغم من أنني تجولت كثيراً مدة طويلة في العالم الإسلامي - العربي، فإنني لا أستطيع أن أتذكر سوى حالات قليلة جداً لتعدد الزوجات. ولعل مما يثير الدهشة، أن رجل أعمال مصرياً يعيش في حي سُويسي بالرباط متزوج من أربع زوجات جميعن ألمانيات، ويبدو عليهن جميعاً أنهن أسعد كثيراً من النساء في الغرب. ويمكن للمرء أيضاً أن يرى في إسطنبول في فصل الصيف عربياً أو آخر يصطحب زوجتين أو ثلاث زوجات، جاء معهن هرباً من حر شبه الجزيرة

العربية، ليقيموا في فندق طرابيه – البوسفور. ويستفيد من ذلك في المقام الأول تجار الساعات وتجار الحلي والمجوهرات، المنتشرون في السوق، إذ إنه ينبغي على مثل هذا الرجل متعدد الزوجات أن يهدي إليهن جميعاً الهدايا نفسها، أو ألا يهدي لأي منهن شيئاً، إذا أراد أن يحقق شرط العدل بينهن.

ولقد شاهدت في ديسمبر عام ١٩٩٣ في (أبو ظبي) واقعة مرتبطة بتعدد الزوجات، تشير إلى مدى مراعاة الإنصاف أو العدل الوارد في القرآن بخصوصه. وكان ذلك عندما رأيت في مطعم الأسماك على بحيرة فندق إنتركونتيننتال رجلاً إماراتياً شاباً بصحبة زوجاته الأربع الأصغر منه سناً، وهن جميعاً في العمر نفسه تقريباً ومتشابهات كثيراً، ومعهن أربعة أطفال في العمر نفسه تقريباً.

لا يفوتني أن أذكر أن أحد زملائي من سفراء إفريقيا السوداء، كان يصطحب معه زوجة في الرباط، في حين يترك زوجة أخرى له في وطنه، تماماً كما لو كان يعمل بمبدأ البحارة: «عروس في كل ميناء».

وينبغي أخيراً أن أذكر «ماريام جَميله»، وهي يهودية أمريكية مثقفة اعتنقت الإسلام. فلقد اختارت، بعد بحث، أن تكون واحدة من زوجات متعددات، في باكستان حيث تعيش الآن بوعي تام، مثلما عاشت «أمهات المؤمنين» زوجات الرسول ﷺ.

يتبين من خبراتي، التي قدمتها في قائمة صغيرة مفصلة، أن تعدد الزوجات بما يتفق وهدف القرآن لا يمثل مشكلة للإسلام بصفة عامة. وإذا جاز لي بوصفي مسلماً أن أراهن على شيء فإنني أراهن على أن تعدد الخليلات في العالم الغربي أكثر من تعدد الزوجات في العالم الإسلامي.

❖ ❖ ❖

يعد الزواج الإسلامي شيئاً سيئاً وفقاً للتصور الغربي، حيث يتوهم كل امرئ هناك أن المسلمة تستعبد وتضرب. ولكنني أزعم، بقدر ما يتاح لي من المعرفة، أن غالبية النساء في العالم الإسلامي يحيين مع أزواجهن في علاقة مشاركة، تحقق لهن ذواتهن، حتى في بعدها الجنسي، (ونحمد الله على أن عملية ختان الإناث التي تشوه المرأة مجرد عادة من العادات المنتشرة في إفريقيا السوداء، وأنه لاعلاقة لها بالإسلام البتة).

صحيح أنه في معظم الزيجات الإسلامية، تسود نزعة «الأبوية»، حيث تؤخذ حماية المرأة مأخذ الجد من جانب زوجها وإخوتها على السواء، حتى إنه ينظر إليه من منظور تحرري على أنه تضييق لنطاق حريتها. ومن الواضح أن مفهوم شرف العائلة يلعب دوراً حاسماً في هذا الشأن. فالرغبة في حماية المرأة، وليس النزوع إلى امتلاكها، هي التي تغذي الموقف الذي نفسره خطأ على أنه الغيرة. فالظاهرة، إذا ما نظرنا إليها من قرب، لا علاقة لها بالغيرة، بل إنه على العكس من ذلك يسعى معظم الرجال المسلمين إلى إبعاد زوجاتهم عن مواقف حرجة، حتى لا يضطروا إلى العراك مع أحد قد يثرنه بما يرتدين من ثياب مثيرة.

وتأتي عذرية الفتاة في مقدمة ما يحرص الأب والإخوة في العالم الإسلامي على حمايته. وفي بعض الأنحاء، كما هي الحال في مناطق الأكراد في تركيا، تنبذ الفتاة «الساقطة» بسبب ما جلبته للأسرة من عار، بل إنها قد تقتل أيضاً. ويعني فقدان عذرية الفتاة، على أي حال، تضاؤل فرص زواجها زواجاً كريماً. ولا يندهش أحد من أن الجراحين، الذين يستطيعون إصلاح كل شيء بإبرة ماهرة، يربحون من هذا الوضع.

وفي بعض الأحيان، يمكن أن يصل العمل من أجل حماية المرأة إلى حدود

مبالغ فيها. ففي المغرب، على سبيل المثال، لا يسمح للمرأة - حتى وإن كانت تحمل جواز سفر خاصاً بها - أن تسافر إلى خارج البلاد، ما لم تقدم إلى السلطات المختصة في المطار تصريحًا لها بالسفر من زوجها.

تعود ظاهرة حماية الرجل للمرأة، حتى وإن لم تر هي أنها في حاجة إليها، بجذورها إلى جملة استهلالية في آية من آيات القرآن، فسرت منذ قرون من الزمن بما يفيد تفوق الرجل على المرأة، لأسباب تتعلق بالجينات أو ببنية الجسم، وهو ما كان له عواقب مأساوية على المرأة. هذه الآية هي الآية ٣٤ من سورة النساء، وهي في ترجمة ألمانية مهمة، وفيها نقلته أنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الإنجليزية للقرآن إلى الألمانية، تبدأ على النحو التالي[1].

١- «الرجال متفوقون على النساء». (م. سافاري M. savary).

٢- «للرجال أفضلية على النساء». (بلزا تيجاني Pelse Tidjani).

٣- «الرجال قادة النساء». (حميدو الله) Hamidullan).

(١) لقد استعنت بترجمات القرآن التالية: محمد علي: «القرآن المقدس»، زيورخ (١٩٥٤). يوسف علي: «القرآن المقدس» (باللغة الإنجليزية)، الطبعة ١٢، برنتوود (١٩٨٩). محمد أسد: «رسالة القرآن» (باللغة الإنجليزية)، جبل طارق (١٩٨٠). جاك بيرك: «القرآن» (باللغة الفرنسية)، باريس (١٩٩٠). حمزة بوباكير «القرآن» (باللغة الفرنسية)، الطبعة الثالثة، باريس (١٩٨٥). لازاروس جولد شميت: «القرآن» (١٩٢٠) فيزبادن (١٩٩٣). محمد حميد الله: «القرآن المقدس» (باللغة الفرنسية)، الطبعة الثالثة عشرة، برنتوود (١٩٨٥). ماكس هنيّنج: «القرآن»، ليبزج (١٩٠١). عادل خوري «القرآن»، جُتير سلوه (١٩٨٧). دينيس ماسون «القرآن» (باللغة الفرنسية) باريس (١٩٦٧). دينيس ماسون وصبحي الصالح: محاولة لتفسير القرآن» (باللغة الفرنسية)، القاهرة بيروت (١٩٨٠). صدوق مازغ «القرآن» (باللغة الفرنسية)، باريس (١٩٨٥). رودي باريت «القرآن»، شتوتجارت (١٩٧٩). محمد رسول: «القرآن الكريم»، الطبعة السابعة، كولونيا (١٩٩٥). مجموعة من المترجمين: «القرآن المقدس» (باللغة الفرنسية)، المدنية (١٧٨٣). م. سافاري: «القرآن» (باللغة الفرنسية» باريس (١٨٣٩).

٤- «للرجال سلطة على النساء». (بوباكيور، وماسون، Boubakeur & Masson وترجمة سودانية رسمية).

٥- «للرجال حق الرقابة على النساء». (ماتسيه Mazigh).

٦- «يتقدم الرجال النساء في المسؤولية». (رسول Rassoul).

٧- «للرجال منزلة أعلى من منزلة النساء». (جولد سميث Goldschmidt).

٨- «الرجال أعلى من النساء». (باريت Paret).

٩- «الرجال متفوقون على النساء». (هيننج Henning).

١٠-«الرجال مسؤولون عن النساء». (م. علي M.Ali).

تؤدي كل هذه المعاني والتفسيرات في نهاية الأمر إلى نتيجة مفادها أن الرجل رئيس زوجته.

وحمداً لله، أن النص العربي ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾لا يحمل المعنى المشار إليه، ولا الدلالات التي سبق لي أن أوردتها. فهذه الكلمات الأربع تعني، بموضوعية من دون انحياز للرجال، أن الرجال مسؤولون عن رعاية النساء والقيام بشؤونهن. وهي تعني ذلك، كما يتبين من بقية نص الآية، لأن الرجل مسؤول عن صيانة زوجته، باعتبار أنه قد يكون الأقوى جسدياً ومالياً. فإذا كانت هي الأقوى جسدياً أو مالياً لا يجوز له أن يفرض حمايته عليها.

هذه ليست الحالة الوحيدة التي يكيف فيها الرجال فهمهم للقرآن، وفقاً لممارساتهم وسلوكهم في الواقع، بدلاً من تكييفه لأحكام القرآن الودودة تجاه النساء والرفيقة بهن.

لَفَتَ عبد الله بتوريك، رئيس جمعية المسلمين الألمان، وفتحي عثمان عالم

الإسلاميات المصري (لوس أنجلوس)، الانتباه إلى أنني لست الوحيد الذي يدعو إلى تغيير الفهم الخاطئ لهذه الفقرة القرآنية المثيرة للجدل. ولقد بدأ المرء في العالم الأنجلو ساكسوني بالفعل في تغيير مفهومها على النحو التالي:

١- «ينبغي على الرجال أن يعنوا عناية كاملة بالنساء». (أسد Asad).

٢- «ينبغي على كل الرجال أن يدعموا ويسندوا النساء» (إرفينج Irving).

٣- «الرجال حماة وكفلاء النساء». (ى. علي Y.Ali).

٤- «الرجال يعولون النساء». (بيرك Berque).

٥- «الرجال وكلاء ومسؤولون عن النساء». (خوري Khoury).

إن علينا إذن أن نضع حداً لتصور أن الرجل يتمتع من حيث المبدأ بوضع متميز بالنسبة لوضع المرأة. ومع ذلك، تبقى هناك حالة واحدة لا غنى للمرأة فيها عن حماية رجل، وهي الحج. إذ ينبغي عليها في جميع الأحوال أن تكون مصحوبة بـ «مَحْرَم» زوجها، أو أي من الأشخاص الذكور «المُحَرَّم» عليها الزواج بهم. فليس من الضروري أن يصحبها زوجها فحسب، وإنما يمكن أن يصحبها والدها أو أحد أشقائها، طالما أنهم مسلمون.

وهذا أمر يسبب متاعب كثيرة للسلطات السعودية، لأنه يوجد في القرن العشرين ما كان من النادر أن يوجد في القرن السابع، وهو وجود مسلمات وحيدات (غير متزوجات)، لا يوجد بين أفراد أسرهن مسلم آخر غيرهن. ومن بين هؤلاء، مسلمات ألمانيات عرفن الطريق إلى الإسلام بمفردهن، ويسعين إلى أداء فريضة الحج سنَة بعد أخرى، غير أنهن لا يستطعن بلوغ غايتهن بسبب عدم وجود محرم (تغاضت السفارة السعودية في بون مرة واحدة عن شرط مصاحبة محرم في حالة مسلمة حديثة الدخول في الإسلام، كانت أرملة عمرها ٨٠ عاماً).

وهناك بطبيعة الحال من يلجأ، في سبيل أداء فريضة الحج، إلى عقد قران حسب الشريعة الإسلامية، خروجاً من مشكلة المحرم، ولكنه قد لا يكون مسبوقاً بزواج رسمي، فيترتب على ذلك تعارض مع القانون، لا يلبث أن ينهي الزواج الوهمي (الشرعي) ما لم يسبقه زواج رسمي.

وعلى الرغم من هذه الحماية المقامة على المرأة، أو لعله بسببها، فإن حياة الأسر المسلمة ليست أقل هدوءاً ووداعة من حياة الأسر الألمانية. وكثيراً ما يكون للنساء، وبصفة خاصة لأم الزوج، الكلمة العليا (والكلمة الأخيرة). فظاهرة خضوع الرجال لزوجاتهم ظاهرة عالمية.

هناك بطبيعة الحال حالات اعتداء بالضرب على النساء، وبصفة خاصة من أزواج مخمورين، ولكنهالا تزيد على حالات ضرب الأزواج لزوجاتهم في أوربا، إن لم تكن أقل منها بسبب الاختلاف بين أوربا والعالم الإسلامي فيما يختص بمدى انتشار تناول الخمور.

فالعنف الذي يمارس ضد المرأة في الأسرة الإسلامية لا يرجع إذن إلى أصول في الشريعة الإسلامية، تماماً كما أن دُور إيواء النساء، اللائي يتعرضن للإيذاء البدني من جانب أزواجهن، ومعهن أطفالهن، لا تستند إلى أصول في الديانة المسيحية.

يؤسفني أنني اضطررت إلى هدم هذا الحكم السابق على الإسلام من جانب الأوربيين، وخصوصاً أنني أدرك مدى ما نشعر به من ارتياح عندما نستنكر أخلاق قوم آخرين. ولكن لماذا ينبغي أن يكون الإسلام هو كبش الفداء؟! أليس هناك غيره؟!

إذا نظرنا إلى تحقيق المرأة لذاتها في مجال العمل المهني، فسنرى أن الوضع في معظم البلدان الإسلامية يبعث على التفاؤل. فعملية محو الأمية بين الفتيات تتقدم بخطى واثقة وناجحة، وإن تكن بطيئة إلى حد ما بسبب ما تلقاه من معارضة من جانب بعض الأسر. وترتفع نسبة الأكاديميات في بلدان مثل تركيا، والمغرب، ولبنان وسوريا، ومصر بالمقارنة بنسبتهن في السعودية، واليمن وبلدان الخليج. وتتساوى أعداد الطبيبات، والمحاميات والصحفيات، والكاتبات، وأستاذات الجامعات في تركيا مع مثيلاتها في كل من مصر والمغرب. وتسمح هذه البلدان، ومعها أيضاً الإمارات العربية المتحدة، بانضمام الفتيات بها إلى قواتها المسلحة.

وتتولى المرأة في البلدان الإسلامية رئاسة الحكومة. فهناك تانسو تشيلر، وبناظير بوتو. وفي اعتقادي أنه ما يزال أمام ألمانيا المتحررة طريق طويل قبل أن تصل المرأة فيها إلى رئاسة الحكومة. ولكن تتشابه أوربا والعالم الإسلامي في الانخفاض الشديد في أعداد النائبات البرلمانيات. ويرجع ذلك إلى ضعف إقبال النساء على انتخاب نساء لعضوية البرلمان. ومن ثم، فإنهن يساعدن على استمرار توزيع الأدوار في هذا المجال على حاله (لم تدخل المرأة البرلمان في المغرب حتى عام ١٩٩٣ الذي انتخبت فيه امرأتان لعضويته). فيما عدا محكمة الأحداث، ما يزال شغل منصب القاضي مجالاً مغلقاً في وجه المرأة. وتقتصر على الرجال ممارسة النشاطات المتصلة بتنفيذ أحكام دينية، مثل النشاطات التي يمارسها الخليفة والإمام والمؤذن والقاضي. وهذا أمر لا تختلف فيه وجهة النظر الإسلامية عن كل من وجهة النظر الكاثوليكية والأرثوذوكسية، واليهودية. وليس ثمة أمل في أن يتغير هذا الوضع قريباً.

لا تقوم المرأة بدور في الحياة العامة، في البلاد الإسلامية كلها. ففي السعودية، لا يجوز للمرأة أن تقود سيارة، ولا أن تعمل مذيعة تلفزيونية، ناهيك عن أن طالبات الجامعة يتابعن أساتذتهن من خلال شاشة تلفزيونية، وتختلف هذه الطريقة في حجب المرأة عن الطريقة المتبعة للفصل بين الجنسين عقب انتهاء حفلات العشاء الرسمية المختلطة، على نحو ما يجري في العالم الإسلامي وفي بريطانيا. فعادة ما يتجه الرجال إلى صالون (يسمى في التركية زلملك)، في حين يتجه النساء إلى صالون آخر (حرملك). ولا يجري هذا الفصل بدوافع دينية، وإنما لأسباب عملية، إذ غالباً ما تكون الموضوعات التي يدور حولها حديث أحد الجنسين غير شائقة للجنس الآخر.

إنني لا أوافق بحال من الأحوال على معاملة الرجل لزوجته كما لو أنها طفلة، كما هي الحال عند البوظابتيين بالجزائر الذين يرون أن اهتمامات المرأة تنحصر في المطبخ، والأطفال، والمستشفى، والملابس، والمجوهرات. ولقد تناقشت في هذا الأمر مع مثقفين، ذوي ثقافة عالية، متسائلاً كيف يرضى الرجل بزوجة مثل الطفلة؟! وكانت الإجابة التي تلقيتها مذهلة، إذ قالوا إن المرء منا لا يقضي في نهاية الأمر أوقاتاً طويلة مع زوجته!

ومن ثم، فإنه يترتب على الاختلافات المذهبية، إلى جانب اختلاف المقومات الحضارية، اختلافات في ملبس المرأة المسلمة من بلد إسلامي إلى آخر، ومن جماعة مسلمة إلى أخرى. فملابس المرأة المسلمة تختلف في إندونيسيا عنها في باكستان، وفي الأناضول، وفي جنوبي الجزائر.

تستطيع العين المجردة أن تميز خطين فاصلين في العالم الإسلامي. يفصل الخط الأول منهما بين المرأة التي تغطي شعرها، والمرأة التي تكشف عنه. وبناء على طلب من الملك محمد الخامس، خلعت إحدى قريباته غطاء رأسها على نحو يكاد يكون استعراضياً.

ومنذ ذلك الحين، تكشف النساء في المغرب شعورهن في معظم الأحوال. وترتفع نسبة النساء اللائي يكشفن رؤوسهن في المدن الكبرى بالجزائر والأردن وسوريا وتركيا.

ويفصل الخط الثاني بين المرأة التي تغطي رأسها فقط، وتلك التي تغطي وجهها بالإضافة إلى رأسها. فما يزال المرء يصادف حتى الآن في بعض البلدان الإسلامية حجاب الوجه، فيراه بشكل فردي، وعلى نحو متراجع، في المغرب، وإسطنبول، ودبي، وغيرها. وليس لحجب الوجه من سند في القرآن. بل إنه من غير المسموح للمرأة أن تغطي وجهها في الحج.

بعد أن أدَّينا العمرة في عام ١٩٨٢، اضطرت زوجتي إلى حجب وجهها خلف أربع طبقات من نسيج شفاف. وعلى الرغم مما يترتب على ذلك من إعاقة لحركة السير، فإن زوجتي قد وجدته أمراً عملياً، حيث إنه يمكنها من الخروج في أي وقت دون أن تكون في حاجة إلى تصفيف شعرها، أو إلى وضع مساحيق على وجهها.

(لهذا السبب، يفضل بعض النساء في الغرب أيضاً تغطية الرأس بإشارب، ووضع نظارة شمسية داكنة على العينين).

إن من يرغب الآن في رؤية حجاب مبالغ فيه، عليه الذهاب إلى اليمن، حيث ما يزال بعض النساء يرتدين أقنعة مصنوعة من الجلد، أو إلى جنوبي الجزائر في ميزاب، حيث لا يظهر من المرأة سوى عين واحدة، وإذا رآها رجل أدارت وجهها نحو الحائط.

من الخطأ، أن يتصور بعضهم أن ارتداء الملابس الإسلامية المحتشمة، بما في ذلك ارتداء غطاء للرأس، أمر يفرضه على النساء أزواج غيورون... فمن ترتدي الحجاب، إنما ترتديه ابتغاء مرضاة الله وفي طاعته، ولكي يعرف عنها الاحتشام والوقار. والمسلمات الألمانيات خير دليل على ذلك. فالعديد منهن اهتدين إلى ا لإسلام وحدهنّ، ودون أن يكون في أسرهن رجل واحد مسلم. ولكنهن يتعرضن مع ذلك لمضايقات في الحياة العامة، إذ يتندر عليهن بعضهم بسبب ما يرتدين من ثياب، أو ينظر إليهن بعين ملؤها الشك.

وعلى الرغم مما تجلبه الملابس الإسلامية من مضايقات للمسلمات الألمانيات، فإن لها مزايا أو إيجابيات، إذ إنها ترشد إلى دينهن، فيتعرف عليهن من يريد أن يحاورهن حول الإسلام، وهو ما يرحبن به لتأكيد إيمانهن. ناهيك عن أن الكثيرات منهن يرتحن إلى حماية ملابسهن لهن من الظهور كسلعة في سوق الشهوات.

ولقد أبدت الغالبية من أخواتي المسلمات إعجابهن بكتابي: «الإسلام كبديل»، ولكن ساءهن فيه نقطة واحدة، عبرت فيها عن انحيازي للرأي القائل: إن غطاء الرأس يصبح ضرورياً فقط عندما يؤدي كشفه إلى إحداث إثارة جنسية (ص١٨٠). وفي يوليو عام ١٩٩٣، تلقيت دعوة من بعض المسلمات الألمانيات، في بيت الإسلام ليتسيلباخ، ليعبرن لي في جو يسوده الود والصداقة

عن خيبة أملهن بسبب ما أعلنته من انحياز للرأي المشار إليه. وعلى أي حال، فإنني أتمنى ألا يجد القارئ صعوبة في أن يعترف بأن الإسلام أغنى وأعمق من مجرد غطاء رأس المرأة.

❖ ❖ ❖

من الأمور التي لا يجوز أن توجد في العالم الإسلامي، مسألة وجود أطفال غير شرعيين. ولا يمكن تسويغ وجود هؤلاء الأطفال باستهجان الإسلام تنظيم النسل، واستخدام وسائل منع الحمل؛ فهناك كثير من خطباء المساجد يؤيدون تنظيم النسل، ويدعون المؤمنين إلى مراعاة واجبهم نحو المجتمع، مع أخذ خطر الانفجار السكاني في العالم بعين الاعتبار. ولكن من المرجح، أن كثيرين من المستمعين، الذين ينظرون إلى الأطفال على أنهم ضمان وعنصر أمان لهم في شيخوختهم، يحدِّثون أنفسهم قائلين: دع الإمام يخطب، ودعك منه. وهو على النقيض تماماً مما يحدث في الكنائس الكاثوليكية، عندما يصب الكاهن جام غضبه على تنظيم النسل، إذ يحدّث الكثيرون من المؤمنين أنفسهم قائلين: دع الكاهن يتحدث.

يمنع الإسلام التدخل لإنهاء حمل حدث بالفعل، حتى لو كان الحمل سفاحاً. فالغالبية من علماء المسلمين، ينظرون إلى الإجهاض على أنه جريمة ضد الحياة.. جريمة قتل لإنسان لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وكان بعضهم قد اعتنق الرأي الذي يقول بالسماح بالإجهاض حتى نهاية الشهر الرابع، أي حتى تبعث الروح في الجنين. ولكن هذا الرأي فقد حجيته تماماً، وهو ما أعلنه بصراحة ووضوح تامّين المؤتمر الدولي للسكان والتنمية الذي عقد بالقاهرة في سبتمبر عام ١٩٩٤.

لا يعطي الإسلام اسماً ولا حقوقاً للأطفال غير الشرعيين، لأنهم غير متوقعين

بحسب مبادئه وقيمه. ولذلك، يجد الطفل غير الشرعي نفسه في موقف شديد السوء، ما لم يعالج والده الأمر ويعترف به، ويضمه إلى أسرته، بدلاً من التخلي عنه ونبذه.

وتعود مشكلة الأطفال غير الشرعيين في الإسلام إلى نهيه عن التبني، فليس من حق الوالدين، أن يتنازلا نهائياً عن نسب طفلهما إليهما. وليس من حق الأم لطفل غير شرعي، أن تتنازل نهائياً عن حقها في الأمومة، ومن ثم فإن أحداً لا يستطيع تبني طفل غير شرعي ولكنه يستطيع رعايته فقط ، وهذه الرعاية أمر يمكن الرجوع عنه في أي وقت.

ومن وجهة نظر إسلامية، يتعرض الأطفال بالتبني لصدمة لا داعي لها، تسبب لهم جرحاً لا يندمل، عندما يكتشفون - وهو أمر لا مفر منه في يوم من الأيام - أنهم ليسوا أبناء شرعيين حقيقيين لمن يدعونهم والديهم. ناهيك عن أن التبني يضر بطرف ثالث، هو من له الحق في إرث المُتبنّي، إذ يأتي الابن بالتبني ليشاركه إرثه، دون الرجوع إليه، والحصول على موافقته وأخيراً، يُعَبِّر التبني عن تدخل غير طبيعي في شجرة عائلة، فضلاً عن أنه مظهر لتدخل في مشيئة الله وقدره.

لا يأخذ الأزواج الألمان والفرنسيون والإيطاليون الذين لا ينجبون أطفالاً، ذلك كله في الاعتبار، عندما يأتون إلى المغرب لتبني أحد الأطفال الأيتام. وإنما يتحولون لبضع ساعات إلى مسلمين بالاسم فقط، حتى يستطيعوا الحصول على طفل لتبنيه. ولا يجد القضاة، المسؤولون عن عملية الوصاية، حرجاً في تحويل عقد إسلامي ينص على رعاية الطفل إلى عقد تبنٍّ نافذ، مع علمهم بأن هذا العقد الأخير غير مقبول ولا يعمل به في موطن الطفل الأصلي. ويجري في هذه

العملية تجاهل القانون الإسلامي تماماً، بدعوى « مصلحة الطفل»! ويجري تبني طفل أجنبي في ألمانيا حسب القانون الألماني، استناداً إلى المادة (٢٣) من القانون BGB. ولا يشعر القضاة حيال ذلك بوازع من ضمير. . . توهُّماً منهم بأن صالح كل طفل يكمن في إنقاذه من الإسلام!!

لست أجد لهذا الموقف من تسمية تناسبه غير «إمبريالية ثقافية».

❖ ❖ ❖

لا يقع الطلاق بسبب وجود علاقة لأحد الزوجين خارج إطار العلاقة الزوجية فقط، فأحياناً ما يكون سوء حظ الزوجة متمثلاً في عدم إنجابها أطفالاً بصفة عامة، أو عدم إنجابها أطفالاً ذكوراً بصفة خاصة، وهذا يعدّ سبباً كافياً لوقوع الطلاق. ويمكن أن يقع الطلاق من جانب واحد من دون سبب جوهري. ولا يمنع من حدوث ذلك ضرورة أن يُلْقَى يمين الطلاق ثلاث مرات متفرقات. ولقد رأيت مسلمات يشغلن وظائف مرموقة يعشن لهذا السبب في خوف دائم من أن يستيقظن يوماً ليجدن أنفسهن مطلقات، وربما لا يعلمن بطلاقهن إلا من خلال طرف ثالث (ولقد ألغى قانون الأسرة المغاربي لعام ١٩٩٣ إعلان المرأة بالطلاق من خلال طرف ثالث، لعدم وجود سند له في القرآن).

لم يقترب القانون الألماني التقدمي من هذه النقطة، وهي إمكانية إنهاء الزواج، أي الطلاق، من طرف واحد، وذلك دون أسباب قطعية. فوفقاً للمادة ١٥٦٥ من القانون BGB، يكفي أن يرفض أحد أطراف العلاقة الزوجية الفقرة ١٥٦٧، وإن امتدت مهلة إنهاء الزواج إلى ٣٦٥ يوماً.

ويستطيع الرجل إنهاء الزواج من جانبه وتسجيله فقط. أما إذا أرادت المرأة

الطلاق، فإنها تتقدم إلى المحكمة بطلب الطلاق، إذا لم يوافق الزوج على الطلاق من تلقاء نفسه، ولا تطلق نفسها لأسباب مالية. فالزوج الذي يطلّق زوجته يفقد كل حقوقه في استرداد المهر الذي يكون قد دفعه لها، بل ويؤدي إليها مؤخر الصداق. ومن ثم، إذا أعطيت المرأة حق تطليق نفسها دون الرجوع إلى قاض، فإن ذلك قد يؤدي إلى إغراء النساء بإقامة علاقات زواج بنية إنهائها بعد مدة لأغراض مالية.

التقيت رجلاً مسلماً من البوسنة في أحد لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية، فوجدته شديد التعاسة والاكتئاب، لأن زوجته الكرواتية تخلت عن إيمانها بالله، ومن ثم فعليه طلاقها. وتتعرض الزوجات الكتابيات لأزواج مسلمين إلى ضرر بالغ إذا طُلّقن، إذ لا حق لهنّ في إرث أزواجهن، ناهيك عن فقدانهن الحق في رعاية أطفالهن. ولا يدري أ حدٌكم من الزوجات الألمانيات لأزواج مسلمين اعتنقن الإسلام لهذه الأسباب. ولقد تحول بعضهن إلى مسلمات حقيقيات بفضل الحياة في أسرة مسلمة، وما تتركه من آثار فيهن، في حين بقي بعضهن الآخر مسلمات بالاسم فقط.

لم أصادف حتى الآن حالة انتهى فيها زواج إسلامي بسبب الشذوذ الجنسي لأي من الزوج أو الزوجة، وإن كنت قد صادفت حالة امتنعت فيها امرأة ذات مكانة مرموقة عن الزواج لهذا السبب، ويستلفت الامتناع عن الزواج الأنظار، لأن الزواج واجب ديني على كل قادر عليه. ولقد نهى القرآن عن العلاقات الجنسية الشاذة، ومع ذلك فإن لهذه العلاقات وجوداً لايستهان به في العالم الإسلامي. ولست مبالغاً إذا قلت إنه لا يوجد مكان آخر به ذلك القدر من التسامح حيال الشذوذ الجنسي الذي يوجد بالمغرب. وربما يفسر ذلك حضور كثير

من الفنانين الشواذ أو المخنثين الأمريكيين، أمثال تنسي ويليامز، وترومان كابوت، ووليام بوردز إلى طنجة والعيش فيها - عندما كانت ما تزال منطقة دولية - أو الذين قضوا بقية حياتهم فيها مثل شارلز وجين بولس. وتجذب طنجة حتى اليوم الكثير من السياح الشواذ جنسياً.

في ختام هذا الفصل، يثور السؤال حول تحرر المرأة. والإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر اليسير، وخاصة أن الظروف تختلف من بلد إلى آخر. لكن لا ينبغي أن ينخدع المرء بنماذج تقدم نفسها للعالم الغربي على أنها ممثلة للاتجاه النسائي في بلادها، من أمثال فاطمة مرنيس التي تحظى في الغرب بالترحيب، وبمكانة وقيمة كبيرتين، في حين أنها لا تعني في بلدها، المغرب، شيئاً، فالمرأة المسلمة ليست في حاجة إلى حركة تحرر. فهي، بالنظر إلى موقفها من الله، متساوية مع الرجل... عليها ما عليه من واجبات وفروض: الصلاة والصوم والزكاة والحج، ولها ما له من وعد في حياة ما بعد الموت. وإلى جانب ذلك، تتساوى المرأة المسلمة في حقيقة الأمر مع الرجل المسلم في الحقوق المدنية والإنسانية. وليس لزوجها على وجه الخصوص الحق في التصرف في أملاكها الخاصة. ولا تفقد المرأة المسلمة بعد زواجها اسم أسرتها لصالح اسم أسرة الزوج، وإنما تحتفظ به حتى نهاية عمرها. واحتفاظ المرأة المسلمة بهذا الحق على وجه الخصوص، يوقعها في مشكلة عندما تسافر إلى بلد أوربي، حيث يصعب على رجال الحدود فيه إدراك كيف أن طفلها الشرعي الذي بصحبتها يحمل اسماً غير اسمها.

إلى جانب ذلك، فهناك بعض الاختلافات بين المرأة المسلمة والرجل المسلم، لا تشعر حيالها بالتمييز ضدها، أو بظلم يقع عليها، لأنها اختلافات ترجع إلى معطيات معينة. فهي حين ترث أقل من أخيها، لا يكون واقعاً عليها ظلم، ولا

يكون ذلك خرقاً لمبدأ المساواة بينهما ، لأن هذا الأخ هو وحده المسؤول عن رعاية أسرته، في حين لا تتكفل هي بشيء من الإنفاق على أسرتها، بل ولا بنفقتها الشخصية عندما تتزوج. وترضى المسلمة بأن تكون لها الكلمة العليا فيما يتعلق بشؤون الأطفال صغار السن، في حين يكون لزوجها الكلمة العليا فيما يختص بشؤون أطفالهما الأكبر سناً.

هكذا، يضيق نطاق تساؤلنا لنصل إلى السؤال الذي طرحناه في بادئ الأمر، وهو: هل تتساوى فرص عمل المرأة مع فرص عمل الرجل (في غير ما يتعلق بالأعمال الدينية)؟

وإجابتي عن هذا السؤال هي: لا أعلم. وأنا لا أستطيع أن أعلم، لأن غالبية المسلمات لا يبحثن عن سعادتهن في محاكاة الرجال. فهن، مثلهن في ذلك مثل كثيرات من الأوربيات، لا يرغبن في العمل سائقات شاحنات أو سيارات أجرة، أو قائدات طائرات أو شرطيات، وإنما يتمسكن بدورهن المحدد في الأسرة. ولا يرجع ذلك إلى غياب «الوعي السليم»، وإنما إلى اقتناعهن بأن النساء اللائي يقدمن أمثلة ونماذج للمرأة المتحررة في الغرب يشعرن بالندم، لأنهن تجاهلن الأسرة والأمومة، وما يعنيه ذلك من أنه قد فاتهن أن يحققن بالكامل حقيقة وجوهر المرأة.

مجمل القول، إنه ليس هناك الكثير مما يمكن قوله بصدد فرص العمل للمرأة المسلمة لأنها ترى أن مستقبلها يكمن في كونها امرأة توظف كل مقوماتها وخصائصها (ولا أقول أسلحتها) في تحقيق أهدافها، في ظل الاعتراف بوجود علاقة قطباها: المرأة والرجل.

ويبقى أنني عندما أحدث زوجتي عن نشاطات وإنجازات إحدى بطلات الاتجاه النسائي (المغالى في دعوتها إلى المساواة بين الرجل والمرأة) البارزات، فإن رد فعلها يجيء عبر سؤال ساخر مستفز هل هي جميلة؟!

obeikandl.com